بمناسبة ثمانينية الفنان الكبير محمود صبري

ليس سهلا الكتابة عن قامة بمستوى قامة محمود صبري . خاصة عند نقص الوثائق وقلة المعلومات وصمت فناننا الكبير وتواضعه وزهده وابتعاده عن المهرجانات والأضواء المغرية لغيره . مع تجاهل الجهات الثقافية المسؤولة وغمطها حقوق هذا المبدع الخلاق و الجهات اللاحكومية و التي تدعي الأهتمام الكاذب بالثقافة والمثقفين والأرث المعرفي والفني من مؤسسات المجتمع المدني والأحزاب السياسيةالديمقراطية واليسارية منها بالذات ودور النشر والمجلات الثقافية وغيرها. وقد فاتحت قبل سنوات مجلة الثقافة الجديدة ورئيس تحريرها رائد فهمي وعدداً ممن وضعوا اسماءهم على الغلاف الداخلي للمجلة على اساس هيئة تحرير. في التفكير بتكريم هذا الرائد واحد عمالقة الثقافة العراقية الحديثة الذي لايزال على قيد الحياة واصدار كراس او مجلد لأعماله وكتاباته المختلفة. لكنهم جميعا قد اتفقوا على اعطائي الأذن الطرشة .

فيصل لعيبي

ولم تفعل وزارة الثقافة شيئا ايضا لا في عهد وزيرها السابق ولا في عهد وزيرها اللاحق ولااظن ان هناك من يفكر جديا بمثل هذا الأمر مع الأسف . لم تجمعني بالفنان الكبير محمود صبري مناسبة ما داخل العراق إذ انه كان قد غادره الى الخارج قبل وصولي الى بغداد قادما من البصرة للدراسة في معهد الفنون الجميلة بصحبة صديق الحياة والعمر الفنان القدير صلاح جياد .

بعد ان بذل اساتذتنا في البصرة ما في وسعهم لإنضاجنا وتهيئتنا كرسامين للدخول الى المعهد . كل ما اعرفه عن استاذنا الكبير محمود لايتعدى ماكنت اشاهده من طوابع بريدية ملصقة على اغلفة الرسائل التي تصل الى البيت حيث كان اخي الأكبر غازي من عشاق ركن التعارف في الصحف العراقية والأذاعات العربية وكان محمود صبري قد قام بتصميمها بعد ثورة ١٤ تموز عام ١٩٥٨ . حيث العيون الواسعة كالعيون السومرية والأجساد القوية ولكن المنهكة التي ابدعتها انامله وفكره وعاطفته .

في بغداد شاهدت صورة مطبوعة لعمله الشهير : ثورة الجزائر . وكذلك بعض الصور لأعماله الأخرى والتي سيظهر تأثيرها علي بعد فترة واضحا .

ولد الفنان محمود صبري عام ١٩٢٧ ببغداد. اي بعد عام من ميلاد رواد الحداثة في الشعر العربي المعاصر (نازك الملائكة و السياب والحيدري والبياتي) . واكمل الدراسة الثانوية فيها ثم سافر الى بريطانيا واتم فيها دراسته للعلوم السياسية عام ١٩٤٩ وبعد عودته الى العراق انضم الى جماعة الرواد التي اسسها الفنان الكبير فائق حسن عام ١٩٥٠

لقد ساهم محمود في وضع اللبنات الأولى للفن العراقي الحديث وعمق المفاهيم التي كانت سائدة قبل مجيئه من بريطانيا . ولما كان محمود من حملة الفكر التقدمي اليساري فقد ادخل في الحركة الفنية العراقية مفاهيم الجمال الماركسية واكد في اعماله موقفه المساند للطبقات الكادحة صاحبة المصلحة الحقيقية في التغيير واثار انتباه الفنانين الى المحتوى الإجتماعي للفن ودوره الموجه والمغير والطليعي في حياة المجتمعات على مر العصور . كما ان انشغاله في الرسم لم يمنعه من تعميق رؤيته الثورية وعلاقة الفن بالحياة العامة للناس . لهذا نراه في تلك الفترة يؤكد على مايعانيه المهمشون في المجتمع خاصة فقراء الفلاحين الذين سحقتهم المدينة التي كانوا يتصورونها ملاذ آمن لهم . ونرى كذلك جموع العمال والكادحين يحتلون مساحات واسعة من اعماله آنذاك . وتوغل في الأزقة والشوارع الخلفية للمدينة وكشف لنا عن بيوت الهوى وعذابات بناتها اللواتي قذفت بهن الأقدار ولفظتهن التقاليد والعادات والأعراف السائدة .

كان محمود فنانا مفكرا متميزا في نظرته لدور الفن في الوقت الذي كان معظم فناني تلك الفترة منشغلين بما هو شائع وعادي . مركزين جهودهم على مايمكن ان يلبي طلبات الزبائن . مع بعض الأستثناءات بطبيعة الحال . وكانت المشكلة الإجتماعية هي الشاغل الأهم لفن محمود والناس البسطاء ابطاله المفضلين .

كانت الألوان في تلك الفترة قليلة ومقتصدة ولاتتعدى الأسود والأزرق الغامق مع البني والوجوه الحزينة المصفرة والغاضبة مع خطوط قوية حادة تعكس مزاج الفنان والفاقة التي يتصف بها البشر في مناطق خلف السدة وبيوت القصدير والقصب المائلة الى السقوط .

لكن فترة الخمسينيات على ما يبدو في معظم البلدان العربية كانت فترة مزدهرة وربما ذهبية إذا ما قيست بأيامنا القاحلة والدموية التي نعيشها الآن . هكذا كان العراق في تلك السنين خلية نحل من العمل الأبداعي والفني الخلاق . صحافة . مستقلة احزاب . سوق حر وحرية نسبية لاتقاس بما نحن عليه حاليا . لقد قسم المعماري الكبير الدكتور رفعت الجادرجي الفن العراقي الى مرحلتين . المرحلة الأولى اسماها ماقبل محمود صبري والمرحلة الثانية هي مرحلة محمود صبري او مجيء محمود صبري . حيث تغيرت افكار الرسام العراقي بمجيء هذا الرائد . فإذا كنا ندين لفائق حسن بما قدمه للوحة العراقية من تكنيك حديث ولجواد بما قام به من ربط الحداثة بالتراث العراقي القديم فإن محمود صبري قد دفع بالموضوع الفني العراقي الى عمق المشهد الإجتماعي الدامي .

في الخمسينيات ظهرت حركة الأعمار الشامل في العراق وخطت الثقافة خطواتها المهمة: المسرح . السينما . الفن التشكيلي . الموسيقى والغناء . الشعر والرواية . الفكر والسياسة

وكانت ملامح المجتمع المدني الحديث تنمو بثقة واصرار .

بعد ثورة ١٤ تموز عام ١٩٥٨ . انغمر الفنان في العمل من اجل انجاح هذه التجربة ودخل معترك الفعل الثوري بحماس تشده تلك الافكار التي ناضل من اجلها وعمل على تطبيقها فنيا على اللوحة . وظهرت الوانه الحارة والمشتعلة وازداد بريقها وضوؤها الأخاذ وبرز الأحمر والبرتقالي والأصفر والوردي والأخضر واضحت خطوطه اكثر حيوية وحركة واندفاعاً تعبيرا عن الحياة الجديدة التي بدأ العراقيون مزاولتها .

وخلال هذه الفترة صمم العديد من الشعارات والرموز للنقابات والإتحادات المهنية والنقابية والجماهيرية ولاتزال هذه الشعارات رموزا باقية لتلك المنظمات التي لعبت دورا مهماً في تشكل مجتمع المدينة والعصر الحديث في العراق . ثم كلفته حكومة الثورة بإقامة جدارية تحكي نضال الشعب العراقي خلال مسيرته الصعبة والدامية . فسار الى موسكو لغرض تنفيذ العمل .وكان من المؤمل ان تقام خلف نصب الحرية للفنان الخالد جواد سليم ولايزال مكان الجدارية خاليا حتى كتابة هذه المادة .

لكن إنقلاب ٨ شباط عام ٦٣ قد غير كل شيء وانتهت ايام التفاؤل والأمل . و هذي اللوحة محفوظة الآن لدى الفنان وقد شاهدتها بعيني قبل سنين عديدة بعد ان امتدت لها يد الزمن واهمال الجهات الحكومية وتحولت الى شاهد على العقوق والتجاهل الذي عانى منه فناننا الكبير .

ولما كان محمود من ضحايا انقلاب البعث الأول ومن معارضيه ايضا فقد كتب مادة فكرية وسياسية ضد الفاشية وساهم كفنان في فضحها بالرسم والكتابة . ولاتزال اعماله التي رسمها عن شهداء الحزب الشيوعي وقادته بعد انقلاب شباط الأسود معلما فنيا ووثيقة ادانة وشهادة مبكرة . لايمكن تجاهلها عند الحديث عن الفن الثوري والثقافة الرافضة للقمع والدكتاتورية في عراق ما بعد ثورة ١٤ تموز .

انشغل فناننا محمود بعد هذه الحقبة الدموية بأعمال ذات تقنية مختلفة نوعا ما وازدادت الوانه حرارة واخذ يستخدم اداة حادة وعريضة لملء المساحات وأستغنى عن الفرشاة و اخذ يحور بعض الاعمال الفنية المعروفة لفنانين اوربيين ويعطيها نكهته الخاصة كما هو الحال مع لوحة الصلب لجيروم بوش الهولندي المعنونة ب : صعود الخطايا . او استلهامه لنحت بارز من الفن الآشوري للتعبير عن واقع جديد حيث السلطة تسحق البشر وتدوس خيولها الناس . واستمر الهم الأجتماعي غالبا على اعمال هذا الفنان اضافة لكتاباته النظرية في الفلسفة المادية بالذات والتي كان آخرها حسب علمي ما نشرته مجلة الطريق اللبنانية قبل سنوات عن علاقة المادة بالوعي وطبيعة التحول او التبادل في ادوارهما في الصيرورة الأجتماعية العامة .

في ١٩٧١/١٠/٢٦ اقام الفنان محمود صبري في مدينة براغ معرضه الأول عن واقعية الكم وفي ٣ آذار عام ١٩٧٢ القى الفنان محاضرة في براغ عن الفن الجديد الذي يليق بالعصر الجديد . أسماه : " واقعية الكم فن جديد لعصر جديد " امام حشد من طلبة الدراسات العليا من العراقيين والعرب. و في عام ١٩٧٣ القى الفنان بحثه هذا في جمعية الفنانين العراقيين ببغداد فاثار جدلا واسعا بين الفنانين وقد انقسم الحضور بين مؤيد ومعارض لما ابداه الفنان محمود من وجهات نظر مغايرة لما هو سائد ومستقر في اذهان الفنانين وطلبة الفن وكتاب النقد الفني في الصحافة العراقية –مع الأسف لم نر تأثير هذه الأفكار وما اثارته من جدل في الصحف العربية او المجلات التي تهتم بالثقافة والفنون عامة – . كانت خلاصة هذه الفكرة او البحث ما يلي : ١ – ان العالم عبارة عن عملية معقدة مستمرة من الصيرورات اللانهائية (complex process) وليس عبارة عن موجودات جاهزة و ثابتة ومكتملة ونهائية منذ الأزل ٢. – ان الكتلة والطاقة تتبادلان المواقع وتتحولان. وهذا ايضا مناقض للفهم السابق للمادة التي تعتبر كتلة بالدرجة الأولى . وقد انتقل الفنان في هذه الفرضية من الشكل الظاهري للأشياء و العين المجردة للفنان الى المستوى الذري الأعمق واستخدام الألوان التي تميز الذرات نفسها . وقد وصف الفنان الوان الذرات واشعتها مثل الطابوق بالنسبة للمعماري او البناء . حيث يمكننا بناء العمل الفني اعتمادا عليها . واختزال العالم الى طاقات مشعة . ولما كانت العناصر الطبيعية الذرية هي ٩٣ و لكل عنصر مجموعة من الألوان فقد حدد الفنان لكل ذرة للسهولة سبعة خطوط لونية وبهذا خلق لنا قاموسا لونيا او الف باء اللون حسب وجهة النظر التي يتبناها شخصيا. وهو يعتقد ان هذه النظرة ستقلل الفجوة بين الفنان والعالم وبين النخبة والمجتمع ويتحول الفن من نشاط ذاتي الى نشاط موضوعي وإجتماعي.

لكن مشكلة واقعية الكم هي انها قد تناست المشاعر والأحاسيس البشرية وكذلك الرؤى والأفكار التي لايمكن ترجمتها على اساس ذري مادي خالص .

اين الحزن والفرح والحب او الحقد ؟ اين موقف الفنان من الظلم والأستبداد ؟ . والفنان اصلا لايمارس الفن إلا لأسباب تتعلق بمشاكله وعلاقاته مع الآخرين وموقفه من الحياة والطبيعة والكون والمصير الغامض للبشرية .

لايزال محمود صبري رمزا كبيرا لعراقنا الحديث ورائدا بارزا للفكر الثوري والأنساني النبيل ومربيا لنا على النضال على مختلف الصعد وبمختلف الأساليب لتغيير واقع بلادنا وواقع ثقافتنا وتطوير ابداعنا نحو مواقع متقدمة واصيلة وفاعلة . له العمر المديد والنشاط المثابر والأمتنان والشكر على ماقدمه لنا ولايزال من ثروة روحية وفكرية لاتقدر بثمن مع الأعتذار له .

لندن في ٢٠٠٥/١١/١٢

ملاحظة : كتبت هذه المادة قبل سنتين تقريباً ولكن الإحتفاء بالفنان محمودصبري يبيح لي نشرها حالياً.

لاتضيّعوا الفنان محمود صبري

لقد انجبت ارض العراق عبر الزمن الطويل كفاءات عملاقة غيرت وجه التأريخ واغدقت على الانسانية افضالا جمة تعيش في كنفها الشعوب لحد اللحظة. ولاتزال تلك التربة السحرية وذلك الماء المقدس ينتجان مئات الالوف من العباقرة والمبدعين رغم التسلط والظلم والجوع والحرمان . واذا لم يكن هناك شك في قابلية هذا الرحم المبارك ان ينجب المزيد والمزيد من الابناء البررة المتفوقين ، فانه ليس ثمة شك ايضا بان تلك الارض المعطاء نفسها لم تكن الا ضليعة في خذلان واذلال واهمال عمالقتها المبدعين! والامثلة على ذلك لاتعد ولاتحصى عبر التاريخ المرير.. فذاك هو المتنبي العظيم الذي قاسى شظف العيش وعاش كريما نظيف اليد لينتهي مقتولا بخنجر مأجور عقابا لكرامته وعزة نفسه.. وذاك عبقري الخط العربي ابن مقلة الذي اعطى عصارة علمه وفنه الى وطنه ليستلم عقاب السلطان بقطع اصابعه وفقاء عينيه لاخماد شعلة العبقرية المتفجرة في راسه كالبركان ،

مصدق الحبيب

-١-

حيث انتهى نهاية بشعة في سجن السلطان الرهيب ..وذاك الجواهري الكبير الذي امضى عقودا من الاهمال في الغربة ليحرم من ان يدفن في الارض التي انجبته . وذاك السياب العملاق الذي امضى حياته القصيرة الطافحة بالابداع في فاقة مذلة بثت السل في عظامه فاغترب عليلا معوزا امضى ايامه ولياليه بالالام والتمني بالعودة الى العراق لكنه لم يملك ثمن بطاقة الطائرة او السفينة وظل يحلم بكوخ في الحقول وقبر كئيب..لقد روى ابناء مدينته انه حين عاد جثمان الشاعر الى المدينة كان محمولا على سقف سيارة تاكسي ولم يرافقه اي احد وكان سائق التاكسي لايعلم بهوية المتوفي بل كان موكلا بتسليم الجثمان الى حيث تسكن عائلة المتوفي لكن السائق عاد خائبا بعد ان علم ان مديرية الموانئ العراقية كانت قد اصدرت امرا باخلاء الدار واسترجاعه وطرد العائلة منه لعدم تمكن زوجة الشاعر واطفاله الصغار من دفع الايجار، فظل السائق يجوب الشوارع في يوم ممطر ضبابي حزين لايدري اين يذهب بذلك الجثمان الذي غمرته مياه الامطار.. تلك هي الامطارالتي لم تكن نبوءة السياب بها بؤسا وذلا، بل خيرا طافحا يغمر العراق!!

-٢-

كان الاخ الدكتور عدنان الظاهر والاخ الفنان ساطع هاشم قد كتبا قبل مدة عن الفنان صبري وريادته الفنية ، وكنت قد شاركتهم الرأي شاكرا ومنوها الى ضرورة الالتفات الى ابداع الفنان محمود صبري والتعريف بعطائه العلمي-الفني في نظرية الكم التشكيلية التي اثقل ورقاتها زمن الاهمال وانهك الوانها غبار النسيان.

اجدني الان عائدا للموضوع نفسه اثر قراءتي مقالة الاخ ساطع التي اعاد بها الكرة واعلن عن الموقع الجديد الخاص بالفنان صبري. ان اطلاق موقع خاص بابداعات الفنان صبري هو الخطوة الاساسية الاولى في الطريق الصحيح لرد اعتبار الفنان وتهيئة الفرصة للتعريف بعطائه خدمة للاجيال التي فاتتها تلك الفرصة والاجيال القادمة. ولاادري اذا جاءت هذه الخطوة الموفقة ببادرة خيرية عراقية ام انكليزية ولكن الاهم هو تحقيقها والعمل على اتخاذ خطوات اوسع واكثر في هذا المجال. ففي الوقت الذي اعلن فيه سروري المنقطع النظير واقدم فيه شكري الجزيل وامتناني الوافر لكل العاملين على تحقيق هذه الخطوة، آمل ان تتسع صدورهم الى المقترحات التالية كمساهمة مخلصة في تقويم وتطوير هذه البادرة الضرورية الجميلة:

-آمل ان يصار الى اصدار النسخة العربية للموقع الى جانب النسخة الانكليزية الحالية.كما آمل ان تعهد ترجمتها الى مترجمين كفوئين يتقنون لغة العلم والفن لتجنب الوقوع في التراجم الحرفية التي لاتجود بمعان معقولة ومفهومة خاصة في مثل هذه المواضيع المكتوبة بلغة تكنيكية فنية.

- آمل ان يكون الموقع شاملا فيضم معلومات اضافية عن الفنان صبري تضم سيرة حياته ومعارضه وغربته وتحوي ارشيفا كاملا لاعماله الفنية عبر حياته المهنية الطويلة. وصورا اخرى عن حياته الفنية وزمالته للفن والفنانين العراقيين والدوليين.

- آمل ان يضم الموقع كل ماكتب عن الفنان ونظريته ويتسع ايضا لما قد يكتب الان وفي المستقبل من مقالات ومداخلات مؤيدة او رافضة.

- آمل ان يضم الموقع مساحة لتعليقات الزوار واسئلتهم وامكانية الاجابة عن استفساراتهم. ان موضوعا كهذا من المتوقع ان يكون مثيرا للجدل والمناقشة. وان افضل اثراء لعطاء الفنان وانصافا له هو اتاحة الفرصة للمساجلات والمناقشات واتساع القلوب لاستيعاب الاختلافات عبر الحوار الهادف البناء.

- اقترح ان يتقدم العاملون على هذا الموقع بطلب منحة فنية من منظمات دولية مدنية محايدة تعنى بتراث وابداعات الشعوب ليتمكنوا من الاضطلاع بمهام تطوير الموقع وتوسيعه وجعله لائقا بمكانة الفنان رائدا مبدعاً في تأريخ الفن التشكيلي العراقي.

وكلي امل في ان نساهم جميعا لنعطي الفنان المبدع محمود صبري وكل المبدعين العراقيين في كافة المجالات حقوقهم التي اضاعها الزمن المر. فالامة التي لاتقدر مبدعيها سيغمرها الجهل والظلام ويمحو معالمها الظلم والطغيان.